

حوار مع الفيلسوف الفرنسي  
إتيان باليبار Étienne Balibar

د. جميلة حنفي  
جامعة الجزائر (2)

**تقديم:**

لم ينضب معين الفلسفة الفرنسية برحيل ما يعرف بفلاسفة الاختلاف (ميشال فوكو، جان فرانسوا ليوتار، جاك دريدا، جيل دولوز). على العكس من ذلك تماما ما يزال الفضاء الفلسفي الفرنسي يشهد حراكا فلسفيا دؤوبا، تنشطه أسماء عديدة، من مرجعيات مختلفة. ومن هؤلاء؛ ألان باديو Alain Badiou، إتيان باليبار Étienne Balibar، جاك رونسيير Jacques Rancière، روني جيرار René Gérard، كاترين ملابو Catherine Mallabou، مارسال غوشيه Marcel Gauchet، وغيرهم. ولقد ترجمت معظم مؤلفاتهم إلى اللغة الانجليزية، أما ما ترجم إلى اللغة العربية فما يزال قليلا وفي خطواته الأولى. ونذكر على سبيل المثال ترجمة شفيق محسن لكتاب الدين والديمقراطية La Religion dans la Démocratie لمارسال غوشيه، وترجمة أحمد حسان لكتاب كراهية الديمقراطية La Haine de la Démocratie لجاك رونسيير، وترجمة سميرة ريشا لكتاب العنف والمقدس La violence et le Sacré لروني جيرار.

ونروم من وراء تقديم هذا الحوار، الذي أجراه الصحفي جيروم سكالسكي Jérôme Skalski مع الفيلسوف الفرنسي الماركسي إتيان باليبار، استحضات القارئ في الجزائر وفي غيرها من البلدان العربية على اكتشاف رهن الفلسفة الفرنسية، وذلك من أجل مواكبة ما عاشته وما تعيشه من تطور منذ تسعينيات القرن الماضي إلى يومنا هذا.

أما عن إتيان باليبار فهو كما سبق وأن ذكرنا فيلسوف فرنسي ماركسي. تنتوع اهتماماته الفلسفية بين الأخلاق، السياسة والنظرية النقدية. ولد في 1942 ودرس على يد الفيلسوف لويس ألتوسير من 1960 إلى 1965 في المدرسة العليا للأساتذة في فرنسا وأسهم معه في كتابة قراءة الرأسمال Lire le Capital سنة 1965، (وهو كتاب ضم مجموعة من المقالات دونها ألتوسير مع طلبته أمثال باليبار ورونسيير وبيير ماشري Pierre Macherey). انضم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي في 1961 ليُقصى منه في سنة 1981 بسبب رفضه للحملة التي شنّها الحزب آنذاك ضد المهاجرين. ولقد التحق بجامعة الجزائر في 1965 بصفة معيد لمدة عامين. كذلك شغل باليبار منصب أستاذ الفلسفة الأخلاقية والسياسية في جامعة باريس نانتر Paris Nanterre واستدعي بصفة أستاذ مميز في الإنسانيات في جامعة كاليفورنيا إرفين California Irwin من سنة 2000 إلى سنة 2012. وهو فيلسوف معروف بمواقفه الإنسانية وبدفاعه عن القضية الفلسطينية، وعن المهاجرين عموما والمهاجرين غير الشرعيين عربا كانوا أو غيرهم. ولقد كتب ما يربو عن ثلاثين كتابا منها:

سبينوزا والسياسة 1985 Spinoza et la Politique

فلسفة ماركس 1993 La philosophie de Marx

فكرة المساواة-الحرية 2010 La proposition de L'Égaliberté

## نص الحوار:

**جيروم سكالسكي Jérôme Skalski:** منذ خمسين عاما نشر كتاب من أجل ماركس Pour Marx للويس ألتوسير Louis Althusser، وبإشرافه نشر كتاب قراءة رأس المال Lire le Capital.

يا ترى ما هو السياق الذي كان يحدد النقاش في تلك الفترة؟  
**إتيان باليبار:** بإيجاز شديد أقول إن السؤال يحيل إلى بعد فكري وحتى أكاديمي، وسياسي وإيديولوجي. أنا أنتمى إلى الجيل الذي التحق بالمدرسة العليا للمعلمين ENS في عام 1960. وهذا ليس غير ذي صلة بالموضوع من وجهة النظر التاريخية. كان يوجد في مجموعتنا التي التقت تدريجيا حول ألتوسير طلابا بالطبع، ولكن أيضا أتباع. ناس كبار في السن قليلا مثل بيير ماشيري Pierre Macherey، وبعدها التحق الأصغر سنا قليلا، ماويو المستقبل les futurs maoïstes مثل دومينيك ليكور Dominique Lecourt. وامتد هذا إلى خمس أو ست سنوات. إذن، من جهة عام 1960 هو العام الذي سبق انتهاء حرب الجزائر بعامين، وهو العام نفسه وتحديدا في غضون بضعة أشهر الذي نشر فيه كتاب نقد العقل الجدلي لجون بول سارتر Jean Paul Sartre. لقد كنا مسيسين بسبب حرب الجزائر. كنا جميعا نشطاء في الاتحاد الوطني لطلاب فرنسا UNE الذي كان أول نقابة فرنسية تعهدت بلقاء النقابات الجزائرية التابعة لجبهة التحرير الوطني في محاولة لتنسيق نشاطاتهما بغرض مقاومة الحرب. تميز هذا السياق بتسييس شديد وتعبئة لكن أيضا بصراعات داخلية حادة جدا. وكان جوهر تسييسنا بالأحرى متعلقا بتعبئة مناهضة للاستعمار، وبالتالي، معادية للإمبريالية. ولقد كان البعد الاجتماعي موجودا لكنه كان بمثابة شيء مضاف.

من جهة أخرى تميزت هذا الفترة بنقاش حاد حول الفلسفة الماركسية والتي لعب فيها فلاسفة ماركسيين من الحزب الشيوعي دورا لا يمكن إنكاره. ليس هؤلاء فقط بل أيضا فلاسفة ماركسيين مهمين الذين إما لم يعودوا أعضاء في الحزب الشيوعي، مثل هنري لفر Henri Le febvre، أو ينتمون إلى اتجاهات ماركسية غير شيوعية. وبعد ذلك كان هناك جان بول سارتر الذي وصف نفسه بأنه رفيق السفر، وكان قد نشر للتو مؤلفه الضخم الذي اضطلع فيه إعادة بناء الماركسية. والذي تظهر في مقدمته العبارة الشهيرة التي غالبا ما نكررها بطريقة خاطئة: "الماركسية هي الأفق الفلسفي غير القابل للتجاوز في عصرنا". "أنا لا أقول أن أي عمل فلسفي في فرنسا كان يدور حول ماركس. سيكون من الخطأ تماما قول ذلك. ولكن دعونا نقول إن النقاش حول الماركسية كان حقا بارزا جدا، مكثفا جدا، عاطفيا جدا ومثيرا جد الاهتمام. إنها أيضا الفترة التي قرر فيها الحزب الشيوعي تنظيم مركز ماركسي للدراسة والبحث الماركسي مع مجلات مثل الفكر La Pensée والنقد الجديد La Nouvelle Critique.

كما قرر الحزب تنظيم أسابيع الفكر الماركسي Semaines de la pensée marxiste. لإعطاء لمحة عن تلك الفترة، أذكر عام 1961، العام الذي تلى نشر كتاب جان بول سارتر. الحدث الرئيسي في أسبوع الفكر الماركسي لتلك السنة كان النقاش الذي دار بين سارتر ومديرنا في المدرسة العليا للمعلمين، جان هيبوليت Jean Hippolyte، المتخصص الشهير في هيغل من جهة. ومن جهة أخرى روجيه غارودي Roger Garaudy، الممثل الرسمي للحزب الشيوعي الفرنسي في الفلسفة، وجان بيير فجيبي Jean-Pierre Vigier، مقاوم، فيزيائي، وفيلسوف، وعضو اللجنة المركزية للحزب. وقد دار هذا النقاش في القاعة الكبرى للتعاضية، والتي كانت ممثلة عن آخرها. كان الحدث ضخما.

كان لويس ألتوسير أستاذا مجازا في الفلسفة ومعيدا مكلفا بتحضيرنا لامتحان الإجازة. بكل وضوح لم تكن دروسه تتناول الماركسية ولكن مواضيع أخرى متنوعة. ولكنني عام 1961 صدر أول مقال له في مجلة الفكر، تلتها عدة مقالات أخرى أحدثت على الفور جدلا واسعا داخل الحزب وخارجه. وذلك ما جذب اهتمامنا على الفور. فذهبنا للعثور عليه لاقتراح تشكيل مجموعة عمل والتي أصبحت تدريجيا فرقة صغيرة. طبعاً، لم تدم طويلاً فمباشرة قبل عام 1968، لم تقاوم توترات داخلية حادة نوعاً ما. ولكن لعدة سنوات عملنا معاً بشكل منظم على حد سواء على الماركسية والفلسفة الفرنسية في ذلك الوقت والتي كانت تعيش في نظرنا حدث كبيراً هو ميلاد البنيوية Structuralisme. لقد نظمنا ندوة عامة استمرت عاماً كاملاً. وقد نشرت أعمالها مباشرة. في ذلك الوقت بالذات كان تأثير لويس ألتوسير قد بلغ مداه بالنسبة إلى جزء معين من المثقفين الماركسيين اليساريين أو الماركسيون Marxisants فيفرنسا.

**جيروم سكالسكي:** ما هي الاتجاهات الفكرية للويس ألتوسير؟

**إتيان باليبار:** أنا لا أعرف ما إذا كنت قادراً على تلخيص الأمور. أولاً حتى إذا أجرى ألتوسير بعد ذلك عملية نقد ذاتي ليقول، بطريقة معينة إنه قد نسي السياسة، وأعتقد أن عمل ألتوسير من أولى مقالاته، اتخذ بعداً مزدوجاً السياسية والفلسفة. ومنا لواضح أن أحد الجوانب الجذابة، وهي بحق كذلك، في عمل ألتوسير بالنسبة إلى الكثير من الشباب لماركسيين وحتى الفلاسفة الشباب بشكل عام، هو أنه لم يكن مطلقاً يريد التضحية بأحد الجانبين على الآخر. من جهة كان يريد أن يجعل من الماركسية فلسفة كبيرة، ومن جهة أخرى كان لديه مفهوم سياسي للغاية عن الفلسفة والتي شكلت فيها الماركسية، كما تعبر عنه أطروحة فيورباخ الحادية عشرة، وسيلة لتغيير العالم وليس مجرد تأويله. قد يبدو كل هذا بعيداً بعض الشيء اليوم، ولكن خطابه ينتظم حول تفصل جانبيين من الماركسية اللذين حددهما ستالين Staline في كتيب شهير، أثر كثيراً في فكر لويس ألتوسير، فيما أعتقد، بالرغم من أنه يقينا تناول الأمور بدوجماتية. من جهة المادية الجدلية والجانب الفلسفي للماركسية. ومن جهة أخرى المادية التاريخية، أي نظرية التاريخ، وبالتالي نظرية السياسة والتحول الاجتماعي.

**جيروم سكالسكي:** أليس سبينوزا Spinoza مفكر الديمقراطية الراديكالية أيضاً؟ من الناحية الفلسفية هل ترى أن ماركسية لويس ألتوسير عودة إلى سبينوزا أيضاً؟

**إتيان باليبار:** إن سبينوزا صاحب اللاهوت والسياسية هو الذي أعجب به ألتوسير. ولكن لم يكن هذا هو الجانب الذي أثار اهتمامه أكثر. أنت محق تماماً في قولك إن فكر سبينوزا كان فكراً ديمقراطياً بصفة جذرية. إنه الجانب الذي احتل الصدارة منذ بعض الوقت الآن، وقد تم اعتماده من قبل العديد من الفلاسفة، بعضهم، في الواقع، ذوو مرجعية ماركسية. ولكن لم يكن هذا هو الجانب الذي أثار اهتمام ألتوسير. ليس لأنه كان معادياً له لكنه كان يعتقد، في الأساس، أن الديمقراطية الراديكالية عبارة عن مرحلة انتقالية وسيطة نحو ديكتاتورية البروليتاريا. من وجهة النظر هذه كان ألتوسير فيلسوفاً ماركسياً وأرثوذكسياً للغاية.

إن الجانب الذي ركز عليه لدى سبينوزا يتمثل في نظرية الأيديولوجيا. فمع سبينوزا ظهر أو لنقد مادي كبير للإيديولوجية. دافع ألتوسير عن أطروحة مفارقة paradoxale. وأتفهم أنها صدمت بشدة العديد من الماركسيين آنذاك ولكن، من ناحية أخرى، كانت أيضاً جذابة جداً بالنسبة إلى البعض منا. وتتمثل هذه الفكرة في أن مفهوم الإيديولوجيا كان جانباً أساسياً في

الثورة النظرية لماركس. ليس فقط نقد الإيديولوجية البورجوازية ولكن نقد الإيديولوجية بشكل عام. بالنسبة إلى ألتوسير كان هذا يبدو أيضا نقطة مهمة جدا في المناقشات الداخلية لشيوعية تلك الفترة، شيوعية هي من تعليها العقدة الإيديولوجية *complexe idéologique* التي سماها بالعقدة الاقتصادية *économisme* والإنسانية. رأى أن التقليد الماركسي كان ضعيفا فيما يخص مسألة الإيديولوجيا، وحتى وإن كانت لماركس عبقرية ابتكار مفهوم الإيديولوجيا، فإنه بالمقابل قدم تحليلا سيئا جدا لها. إذن وجد لدى سبينوزا عناصر النقد المادي للإيديولوجيا التي لم تكن فيورباخية ولا هيغلية وليست مرتبطة بفلسفة للتاريخ، ولا بمفهوم اغتراب الإنسان والماهية الإنسانية. هذا كله تماشى بصورة جيدة جدا مع ما نسميه علموية *scientisme* ألتوسير كما عبر عنها في فكرة قطيعة معرفية *coupure épistémologique*، وأدت إلى اقترابه من البنيوية. وسرعان ما انتقد ألتوسير هذه المواقف في كتابه عناصر النقد الذاتي *Éléments d'autocritique*.

**جيروم سكالسكي:** ما الذي بقي اليوم منا لخطاب الفلسفي للويس ألتوسير والمناقشات التي كانت دائرة في تلك الفترة؟

**إتيان باليار:** بطبيعة الحال أعتقد، نح نفي حاجة إلى نقد الرأسمالية نقدا يتناسب مع متطلبات الحاضر. ومتطلبات الحاضر؛ هي العولمة، والطابع المختلط غير المنفصم للمشكلة الاقتصادية ومشكلة البيئة. إن ظهور أشكال جديدة للحكم *gouvernance*، كما أن القول، التي هي في جزء منها دولاتية تحتية ودولاتية فوقية أو ما بعد الدولاتية. هذه إعادة صياغة عامة. نحن في حاجة إلى نقد جديد للاقتصاد السياسي والسياسة. وتناول ماركس ليس أمرا زائدا لأداء هذه المهمة، بل هو ضروري للغاية. فماركس ذاته سوف يخرج منها وقد تحوّل. في أحد النصوص الأخيرة التي كتبها، حدد ألتوسير الماركسية بوصفها نظرية منتهية *théorie finie*. من الواضح، أن هذا كان تلاعبا رهيبا بالكلمات في ذلك الوقت. فالجميع كان يتحدث عن نهاية الماركسية. وقال ألتوسير: "ليس هذا نهاية الماركسية" لكنه شدّد على ضرورة أن تحدد الماركسية حدودها الداخلية الخاصة وحدودها التاريخية الخاصة. بطريقة معينة يمكننا القول إن ألتوسير أصبح أكثر تاريخانية *historiciste* مما كان عليه في البداية. لقد دخلنا بالفعل في مرحلة جديدة من تفسير الماركسية التي، بصورة حتمية، ربما أيضا مرحلة تحول جذري للماركسية، سوف يصعب وبلا شك التعرف عليها بعدها.

من وجهة النظر هذه، ما حدث في منتصف 1960 مهم جدا. ليس فقط بسبب الاقتراحات النظرية التي قدمت في ذلك الوقت والتي لم تستغل بالكامل. في بعض النواحي، كان للنقد الذاتي لألتوسير آثاره السلبية. ولكنب الأخص بسبب أن ألتوسير لم يكن البطل الوحيد في هذه المناقشة بشأن إعادة تأسيس الماركسية. كان ذلك بطريقة ما مشروعا مشتركا شاملا بين ماركسيين من بلدان مختلفة خلال تلك السنوات. بالنسبة إليّ لقد حاز ألتوسير نوعا من الامتياز البيوغرافي ولكن ليس هناك امتياز مطلق. إن الإسهام الذي قدمه لا يمكن قياسه ومناقشته إذا لم نوسع أفق نظرتنا.

في سنوات الستينيات كان هناك في إطار الماركسية النقدية الألمانية، قراءة جديدة لرأس المال تدين بالكثير لمدرسة فرانكفورت التي ركزت بشكل خاص على ظواهر الاغتراب الاجتماعي المرتبط بتعميم شكل السلعة. كان ذلك شيئا لم يعرفه ألتوسير جيدا أو لو يرد معرفته. هناك اتجاهات مختلفة في الحركة العمالياتية *operaismo* الإيطالية ومن أبرز شخصياتها ماريو ترونتي *Mario Tronti*، الذي كان يكتب في الفترة نفسها تحديدا مع

التوسير ومجموعته كتابا عن إعادة قراءة رأس المال، حيث تقاطع في بعض النقاط مع التوسير والآخرين، بينما تباعد في أخرى بصفة جذرية. لكن بإمكاننا توسيع الأفق إلى أبعد من ذلك مع التيارات الماركسية النقدية الآتية من أمريكا اللاتينية، ثم تقليد التاريخ الماركسي كما هو ممثل في العالم الأنجلو ساكسوني من قبل إريك هوبسباوم Eric Hobsbawm، موريس دوب Maurice Dobb، كريستوفر هيل Hill Christopher أو بيرري أندرسون Perry Anderson. إذا عدنا إلى عام 1965، سوف نرى الماركسية في كامل ريعانها، وفي تناقض تام مع ذاتها أيضا. من جهة هناك الحمولة الساكنة لأزمة شيوعية الدولة، ومن جهة أخرى الآمال الثورية. في وسط كل هذا توجد قدرة لتجديد الروابط والصلات بين الفلسفة الماركسية والفلسفة المعاشة philosophie vivante. لا يمكننا البدء من جديد وبالطريقة نفسها بالضبط. لكن هذه الفترة يقينا تتضمن فكرة إيجابية بالنسبة إلى اليوم.

**L'Humanité**, 13 Mars 2015

[www.humanite.fr/](http://www.humanite.fr/)